3000001

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

معركة ميريوكيفالوم

٥٧٢هـ - ١١٧٦م

من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي

إعداد

الدكتور

علي محمد علي عودة الغامدي

قسم التاريخ - كلية الشريعة - جامعة أم القرى

تعريف بالباحث

- د . علي محمد عوده الغامدي
- حصل على البكالوريوس من قسم التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى سنة ٩٥ / ٩٦ هـ .
- وحصل على الدكتوراه من القسم نفسه عام ١٤٠٦ هـ بتقدير ممتاز .
- له من الكتب المطبوعة :

١ - بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ٤٦٣ - ٤٩١ هـ
٢ - بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ٥٨٩ - ٦٥٧ هـ

ملخص عن معركة ميريوكيفالوم وأهميتها
٥٧٢ هـ / ١١٧٦م

تنبع أهمية معركة ميريوكيفالوم من النتائج المهمة التي تمخضت عنها ، ومما يؤسف له أن هذه المعركة الحاسمة تكاد تكون مجهولة لدارسي التاريخ الاسلامي ، ويعود السبب في هذا الى أن المصادر الاسلامية المعاصرة لم تتحدث اطلاقا عن المعركة ؛ بل لم تشر اليها أبدا . ولا يوجد تفسير لاغفال المؤرخين المسلمين لذكر هذه المعركة الحاسمة ، فقد كان يعيش في زمن المعركة العديد من المؤرخين الكبار في العراق والشام ومصر مثل ابن الجوزى، وبهاء الدين بن شداد ، والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن الأثير وغيرهم . وقد فصّلوا كثيرا في الحوادث التاريخية التي جرت في عصرهم دون أن يشيروا لتلك المعركة ، ولعل أخبارها لم تصل اليهم أو انهم لم يدركوا أهميتها فأغفلوها .

ويضاف الى هذا أنه لم يوجد أي مؤرخ مسلم في تلك الحقبة في آسيا الصغرى حتى يتحدث عن تلك المعركة ، ولهذا السبب كادت المعركة أن تكون مجهولة لدى الكثير من المتخصصين في دراسة التاريخ الاسلامي .
وقصة المعركة جاءت مفصلة في رسالة الامبراطور البيزنطي مانويل الأول الى صديقه الانجليزي هنري الثاني . اضافة الى ما ذكره المؤرخ البيزنطي نيستاس خونياتس ، وغيره من مؤرخي البيزنطيين والفرنج .

ولقد تمخض عن هذه المعركة دمار الجيش البيزنطي وتدهوُر الامبراطورية البيزنطية بعد أن كانت تقوم بشن الحروب الضارية ضد المسلمين في آسيا الصغرى وبلاد الشام ، كما تمخض عن المعركة توطيد نفوذ دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وازدهارها . ونتج عنها أيضا تأمين الجناح الشمالي للجبهة الاسلامية المتحدة بقيادة صلاح الدين الأمر الذي مكنه من المضي قدما في جهاده ضد الصليبيين دون أن يخشى جانب الدولة البيزنطية .

معركة ميريوكيفالوم ٥٧٢هـ/١١٧٦م

« من المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي »

أصبحت آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد (مانزيكرت) ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م مفتوحة على مصراعيها أمام الأتراك السلاجقة وقبائل التركمان ، وتوغلوا فيها جميعاً[١] وفي سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥ م فتح سليمان بن قطلمش مدينة نيقية (ازنيق الحالية) واتخذها عاصمة له . ومنذ ذلك الحين ظهرت إلى الوجود دولة سلاجقة الروم نسبة الى بلاد آسيا الصغرى (الأناضول) التي كانت تعرف باسم بلاد الروم[٢] .

تذكر أنّا كومنين Anna Comnena أنه « بعد اندفاع الترك من مناطق بيثينيا Bithynia الساحلية والبسفور بالاضافة الى أجزاء داخلية من البلاد ، عقد الأمبرطور معاهدة سلام مع سليمان » وعن طريق هذه الاتفاقية (يونيه ١٠٨١م) وافق السلطان سليمان على ألا يضايق بيثينيا ، وأصبح الحد المعترف به بينهما هو نهر دراكون Dracon، وقد عقد الامبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnnenus (١٠٨١ ـ ١١١٨م) تلك الاتفاقية كي يتفرغ لمشكلاته مع النرمان في صقلية وايطاليا[٣] . على أن ذلك يشير بوضوح الى أن الدولة البيزنطية أخذت تتعامل مع السلاجقة في آسيا الصغرى كحقيقة واقعة ، رغم أن هدف استعادة تلك البلاد الى حظيرة الامبراطورية ظل أملا ماثلا في أذهان الأباطرة البيزنطيين من أسرة آل كومنين ، وناضلوا في سبيل تحقيقه بكل الوسائل .

قام سليمان بن قطلمش ، بعد تلك المعاهدة ، بفتح انطاكية سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م الأمر الذي أدى إلى اندلاع الحرب بينه وبين تتش شقيق

---

(١) عن تفاصيل معركة ملاذكرد انظر: ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٥ ـ ٦٧ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٨ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ علي عودة الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص ١٣٠ ـ ١٤٠ .

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, Cambridge, 1980, PP, 233-234.

(٣) Anna Comnena : The Alexiad of Anna Comnena, Translated by E.R.A Sewter, London, 1969, P, 198.

السلطان ملكشاه ، وانتهت بمقتل سليمان في سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م[١] .

ولم تستطع الامبراطورية البيزنطية الافادة من مقتل سليمان بن قطلمش وتحطُّم الوحدة السياسية للأناضول ولا سيما بعد أن أُرْسِلَ أبناء سليمان الى السلطان ملكشاه ، وأضحى عرش نيقية شاغرا ، ويعود سبب ذلك الى أن أبا القاسم ، الذي تركه سليمان نائبا عنه في نيقية ، تقدم إلى المضايق مهددا الدولة البيزنطية مرة اخرى ، كما أن السلطان ملكشاه ارسل حملة بقيادة الامير بوزان الى آسيا الصغرى لادخال اتراك الاناضول تحت سيطرته ، الامر الذي دفع الامبراطور الكسيوس الى ان يتحالف مع ابي القاسم ضد حملة ملكشاه خوفا من سقوط الاناضول تحت سيطرة السلاجقة العظام . وحالت وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م دون ضم آسيا الصغرى الى دولة السلاجقة في فارس . ولا ريب ان الذي دفع الكسيوس للتحالف مع ابي القاسم ضد حملة ملكشاه هو حرصه على ان تبقى آسيا الصغرى بعيدة عن سيطرة السلاجقة العظام ، الامر الذي يُمَكِّنه من استغلال المنافسات بين الامراء الاتراك ومحاولة استعادتها مرة أخرى غير أن انحسار نفوذ سلاجقة الروم لم يستمر طويلا ، فبعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م جرى اطلاق سراح قلج أرسلان بن سليمان فسار الى الأناضول ، فرحب به الأتراك هناك ، ونصبوه على عرش نيقية ، واستطاع أن يعيد تنظيم دولة والده مرة أخرى ودفع البيزنطيين بعيداً ، بعدما كانوا يحاولون توطيد نفوذهم على الشواطيء الشرقية لبحر مرمرة[٢] .

وقبل الحديث عن معركة ميريوكيفالوم يجدر أن نشير ، باختصار شديد ، الى أهم الجهود التي بذلها البيزنطيون للاستيلاء ، مرة أخرى ، على آسيا الصغرى ، وطرْد الأتراك السلاجقة منها وجهود الأمبراطور مانويل لفرض سيادته على الصليبيين في بلاد الشام ، ومدى ما حققته تلك الجهود من نجاح للدولة البيزنطية ، وذلك لتقدير النتائج الضخمة التي نجمت عن معركة ميريوكيفالوم .

---

(١) Ibid, PP, 198-199- The Cambridge History of Islam, Vol IA, PP, 235-236.

(٢) The Alexiad, PP, 206-207, 210; The Cambridge History of Islam, Vol Ia, pp, 236-238.

وكانت أولى المحاولات الجادة التي بذلها الكسيوس لاسترداد آسيا الصغرى في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م عندما وصل أمراء الحملة الصليبية الأولى الى القسطنطينية ، وبعد مناورات كثيرة وشاقة قام بها معهم استطاع اقناعهم بأن يقسموا له يمين الولاء باعادة جميع الأقاليم التي فتحها السلاجقة المسلمون من البيزنطيين منذ زمن قريب ، وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور الكسيوس بامداد الصليبيين بالمؤن والعتاد والادلاء برا وبحرا ومساعدتهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا(١) .

وفي الوقت الذي كان فيه قلج أرسلان يعمل على توطيد نفوذه في شرقي آسيا الصغرى ، عبر الصليبيون مضيق البسفور ، وتوجهوا الى عاصمته نيقية فحاصروها نحو شهر ، فلم يسع حامية المدينة سوى التسليم لمندوبي الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، الذي استأثر بها لنفسه طبقا للاتفاق الذي عقده مع زعماء الحملة الصليبية حينما أقسموا له يمين الولاء(٢) . ولقد تكبد سلاجقة الروم خسائر فادحة في القوة البشرية وعلى الأرض بسبب الحملة الصليبية الأولى(٣) . واستطاع الامبراطور الكسيوس الافادة من تلك الخسائر ، فأرسل جيوشه الى منطقة ليديا في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى فاستولت على المنطقة بما فيها من مدن بالغة الأهمية مثل افسوس Ephesus وأزمير Smyrna وسارديس Sardis وغيرها(٤) .

وتهيأت أعظم الفرص للأمبراطورية البيزنطية للاستيلاء على آسيا الصغرى مرة أخرى في أعقاب مصرع السلطان قلج أرسلان الأول سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م على نهر الخابور خلال معركة مع سلاجقة العراق ، فتدهورت دولة سلاجقة الروم

---

(١) The Alexiad, pp, 313-329; Setton, K.M. (Editor) A History of the Crusades, The Universitu of Wisconsin press, 1969, Vol I, pp, 284-288.

(٢) The Alexiad, pp, 230-237; William of Tyre A History of Deads Done Beyond the Sea, translated, and annotated by Emily Babcok and A.C. Krey, New York, 1943, Vol I,pp, 152-159.

(٣) The Cambride History of Islam, Vol IA, P,238.

(٤) Ostogorsky, George, History of Byzantine State, translated by Joan Hussy, Oxford, 1968, p, 364.

بعد وفاته ، وأفاد البيزنطيون من تلك الأزمة التي حلت بسلاجقة الروم ، فأخذوا المبادرة بالهجوم على جميع المناطق الساحلية للأناضول ، بحيث شرع الأتراك المسلمون في تلك المناطق في التراجع الى وسط الأناضول ، ولكن ذلك التراجع كلفهم خسائر جسيمة ، فبينما كان جمهور كبير من السكان الأتراك يخيمون بجوار يلوباد Ulubad هاجمهم البيزنطيون وذبحوهم عن آخرهم بمن فيهم النساء والأطفال . كما قام الكسيوس وابنه حنا الثاني بطرد الأتراك من غربي الأناضول وشمال وجنوب المناطق الساحلية وفتكوا بهم . واستمر الامبراطور حنا الثاني (١١١٨-١١٤٣م) في هجومه فهزم الأتراك مرة أخرى ، واحتل بلدان دينيزلي (لوديكيا) Denizli (Laodicaea) ويلوبورلو (سوزوبوليس) Uluborlu (Sozopolis). وفي سنة ٥١٥هـ/١١٢٠م أفاد الأمير غازي الدانشمندى من العمليات البيزنطية في البلقان ، وهزم دوق طرابيزون Trebizond. ومع أن السلطنة كانت - حينذاك - بأيدي السلاجقة الا أن الحكام الحقيقيين للأناضول هم الدانشمنديون . وفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م نهض عرب ، شقيق السلطان مسعود ، وصاحب أنقرة وقسطموني ، للاستيلاء على عرش السلاجقة بقونية ، فتحالف مسعود مع الامبراطور البيزنطي حنا الثاني وهزم أخاه وأجبره على اللجوء الى قيليقية ، وقد مكن هذا البيزنطيين كي يحتلوا قسطموني ، غير أن حملة الامبراطور على قيليقية ، ومحاولات أخيه الاستيلاء على العرش في القسطنطينية أثناء غيبته ، جعلت الامبراطور يعود ادراجه ، الأمر الذي ساعد الأمير غازي الدانشمندي فاستولى على ساحل البحر الأسود ، وفي الوقت نفسه تقدم السلطان مسعود في غرب الأناضول ، وفي فترة قصيرة صار الأمير غازي الدانشمندي أقوى حكام الأناضول .(١)

وفي سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠م عقد الأمبراطور حنا الثاني العزم على القضاء على أتراك الأناضول ، فقام بحملة ضخمة قاصدا نكسار عاصمة الدانشمنديين فوصل اليها بعدما تكبد خسائر فادحة في جنوبي الأناضول وحاصر المدينة ، وخلال الحصار نشبت معارك طويلة وشرسة بين الأتراك المسلمين والبيزنطيين .

(١) The Cambridge History of Islam, Vol Ia, pp, 239-240.

ونجم عن طول الحصار وصمود نكسار اضطرابات داخل الجيش البيزنطي ، فلجأ أحد أمراء الامبراطور الى السلطان السلجوقي ، واعتنق الاسلام ، واستقر بعد ذلك في قونية بعد أن زوجه السلطان ابنته . واضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية ، عن طريق البحر الأسود . وترتب على فشل هذه الحملة الضخمة ، التي بدأت بطموحات وامكانات كبيرة لاستعادة كل فتوحات الأتراك ، أن تقدم السلطان مسعود على طول منطقة انطاليا على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى .[١]

وما حدث من انصراف السلطان مسعود لتوطيد نفوذه في الشرق ، واندفاع قبائل التركمان في غربي الأناضول ، متتبعين أودية نهري ميندريس Menderes وجيديز Gediz. جعل الأمبراطول مانويل الأول Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠) يقوم في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م بتجهيز حملة قادها بنفسه للقضاء على الأتراك في الأناضول . وبعد أن نجح في تصفية حسابه مع الأتراك في غربي الأناضول ، زحف نحو العاصمة السلجوقية قونية ، وهزم قوات السلاجقة في مدينة اكشيهير Akshehir وأحرق المدينة ثم اندفع الى قونية . ولما علم السلطان مسعود بدنو الخطر عاد مسرعا من الشرق ، وأعد جيشا في أقسراى Aksray ، وكان البيزنطيون قد دمروا منطقة قونية بكاملها وقتلوا عددا كبيرا من السكان ، حتى أنهم نبشوا بعض قبور المسلمين . وأمام قونية هاجم السلطان مسعود البيزنطيين الذين فوجئوا بالهجوم ، فتراجعوا بعد أن أشرفوا على هزيمة خطيرة . وبرغم هذه المعركة فان قدوم الحملة الصليبية الثانية ، التي هددتهما معا ، جعلت الامبراطور مانويل يعقد الصلح مع السلطان مسعود ، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين[٢] .

---

(١) The Cambridge History of Islam, Vol Ia, p, 240.

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 241; Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire– 324-1453, 2 Vols, Madison, 1976, p, 417;
The Cambridge Medieval History, Vol IV The Byzantine Emprie, part I Byzantium and its Neighbours, Cambridge, 1966, p, 226.

على أن فشل الحملة الصليبية الثانية والهزائم التي حلت بالصليبيين على يد نور الدين محمود ، هيأت الفرصة للأمبراطور مانويل لفرض نفوذ الدولة البيزنطية على الصليبيين في بلاد الشام وبخاصة على امارة انطاكية التي كان يحكمها ، حينذاك ، ريجنالد دي شاتيون Reginald of Chatillon المعروف في المصادر الاسلامية باسم " أرناط " . والذي قام في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م بغارة مدمرة على جزيرة قبرص التابعة للبيزنطيين ، وارتكب فيها أعمالا مشينة من القتل والهتك والنهب ، ومثّل بالبيزنطيين فيها أشنع تمثيل . فقام الامبراطور مانويل في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م بحملة ضخمة ، ووصل الى قيليقية فاحتل مدنها الكبرى ، وحين شعر ريجنالد دي شاتيون بالخطر قَدِمَ الى الامبراطور عند المصيصة ، ودخل عليه حافي القدمين ، حاسر الرأس ، رابطا رقبته بحبل ، وقابضا على سيفه المسلول من طرفه ، وسلمه الامبراطور من مقبضه ، وانبطح على الأرض سائلا الامبراطور العفو والصفح ، فعفا عنه الامبراطور بعد أن اعترف بالتبعية للامبراطورية البيزنطية . كما حضر ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الثالث Baldwin (١١٤٤ ـ ١١٦٢م) وعقد معاهدة مع مانويل الأول اعترف فيها بالسيادة العليا للامبراطورية البيزنطية . ولما كان ملك بيت المقدس ـ يعتبر في عرف الصليبيين ـ هو السيد الأعلى لكل الامارات الصليبية في بلاد الشام ، فان تلك الاتفاقية أظهرت الأمبراطور البيزنطي وكأنه السيد الأعلى على الصليبيين في بلاد الشام . ثم توجه الأمبراطور البيزنطي الى انطاكية ممتطيا صهوة جواده ، وعلى رأسه التاج المرصع بالجواهر والى جانبه أرناط ماشيا وممسكا بلجام حصان الامبراطور ، وخلفه بلدوين الثالث حاسر الرأس بدون سلاح ، وقضى الامبراطور مانويل الأول ثمانية أيام في انطاكية ، واحتفى به أهلها ، وأعلامه ترفرف على أسوار المدينة وقلعتها .(١)

---

(١) William of Tyre, History of Deeds, Vol 2, pp, 274-282; Setton, A History of The Crusades, Vol I, pp, 540-547– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, pp, 234-235– Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol II, pp, 426-427.
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤، ٦٥٣ ـ ٦٥٥.

ولا ريب أن الأمبراطور مانويل حقق نجاحا من وراء حملته تلك ، ومما ساعده فشل الحملة الصليبية الثانية ، فأصبحت الامبراطورية البيزنطية في نظر الصليبيين في بلاد الشام ، الملاذ الأخير الذي يصح أن يلوذوا به ، في وقت كان فيه نور الدين يمضي قدما في بناء الجبهة الاسلامية المتحدة ومنازلة الصليبيين . وفي انطاكية حاول الصليبيون حَمْلَ الأمبراطور مانويل الأول على مهاجمة نور الدين ، غير أنه استجاب أخيرا لعرض نور الدين بعقد الهدنة مقابل اطلاق سراح عدد كبير من أسرى الصليبيين الذين في أيدي المسلمين ، وتبادل الجانبان الهدايا ثم انسحب مانويل عائدا الى بلاده .[١] ويبدوا أن هدف الامبراطور من ذلك هو أن يبقى خطر نور الدين قائما على الصليبيين حتى يظلوا معترفين بسيادة الدولة البيزنطية ، لأنهم لا يعترفون بتلك السيادة الا حين يلوح الخطر ، ومتى انتفى الخطر ، انتفى الاعتراف بها . أما نور الدين فقد نهج بتلك الهدنة سياسة بعيدة الغور ، حتى لا يدخل في عداء صريح مع الامبراطورية البيزنطية ، ولكي يُبْقي على شعور الشك والريبة ـ القائم فعلا ـ بين البيزنطيين والصليبيين . ومما يبرهن على هذا أن نور الدين حينما أوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة في سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤ م وفتح حارم وأسر بوهمند الثالث أمير انطاكية ، أشار عليه أصحابه بالمسير الى انطاكية والاستيلاء عليها ، رفض مشيرا الى أن مجورة بوهمند صاحبها «أحب اليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية» ثم أطلق سراح بوهمند الثالث مقابل فدية كبيرة[٢] . وهذا يدل على ادراك نور الدين لحرص الامبراطورية البيزنطية منذ فجر الحركة الصليبية على اعتبار انطاكية تابعة لها ، فآثر الا يفتح على نفسه جبهة ـ في ذلك الحين ـ هو في غنيً عنها .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ان تلك الهدنة بين نور الدين ومانويل الأول تضمنت تحالفا ضد السلطان قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم[٣] . على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ،
Stevenson, K.M. The Crusaders in The East, Cambridge, 1957, p, 181.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

(٣) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243.

أنه لا يمكن التسليم بهذا الاستنتاج ، لأنه لم يرد في المصادر المعاصرة أية اشارة لهذا التحالف المزعوم ، كما أن نور الدين محمود ـ بما عرف عنه من صدق العقيدة ، وشدة التقوى والورع ، والحرص الشديد على قضية الجهاد وعلى مصالح المسلمين ـ لا يمكن أن يُقْدِم على التحالف مع الامبراطور البيزنطي المسيحي ضد دولة اسلامية مهما كانت الأسباب .

ومما يدل على تأكيد السيادة البيزنطية على مملكة بيت المقدس الصليبية وسائر الامارات الأخرى ، تلك المعاهدة التي عقدها بلدوين الثالث مع الأمبراطور مانويل ، وضمن بها مساعدة بيزنطة ضد المسلمين ، بالاضافة الى نقش في بيت لحم يعود الى سنة ١١٦٩م جاء فيه اسم الامبراطور مانويل قبل اسم الملك عموري الأول Amaury I ملك بيت المقدس الذي خلف بلدوين الثالث .(١) وتوطدت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين بزواج عموري الأول ملك بيت المقدس سنة ١١٦٩م من ماريا Maria ابنة حنا كومنين وشقيقة الامبراطور البيزنطي مانويل الأول .(٢) وأعدّ الامبراطور البيزنطي في سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م اسطولا بحريا لمشاركة عموري الأول في غزو مصر ، بعد أن ضمها نور الدين الى مملكته ووصل الأسطول وهاجم دمياط وفشل في الاستيلاء عليها بسبب الاجراءات الدفاعية التي اتخذها صلاح الدين ازاء تلك الحملة ، وبسالة أهل دمياط .(٣)

أما عن تطور العلاقات بين الامبراطور مانويل والسلطان قلج أرسلان الثاني والتي أفضت الى معركة ميريوكيفالوم الحاسمة ، فقد عمل مانويل كل ما في وسعه لتحقيق الهدف البيزنطي العتيد والمتمثل في الاستيلاء على آسيا الصغرى وطرْد الأتراك منها ، فعمد الى سياسة ماكرة تخدم هدفه في نهاية المطاف ، وهي اذكاء المنافسات وتعميق الانقسامات بين الحكام الأتراك في آسيا الصغرى ، أي تشجيع التدمير المتبادل للعنصر التركي ، ولا سيما بين قلج أرسلان الثاني وبين

(١) حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢٨ .

(٢) William of Tyte, History of Deeds, Vol II, p, 344.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ٦٨٧ ـ ٦٩٠ .

أخيه شاهنشاه صاحب أنقرة وقسطموني ثم بين قلج أرسلان وبقية الأمراء الدانشمنديين .(١) ويبدو أن الامبراطورية البيزنطية حرصت على العمل على حفظ التوازن بين الأمراء الأتراك كيما تستنزف قواهم وامكاناتهم في الصراعات الداخلية . ولما كانت تدرك أن أقوى أولئك الحكام الأتراك في آسيا الصغرى هو قلج أرسلان الثاني ، فقد عملت على الحد من قوته وجَعْلِهِ تحت المراقبة حتى لا تزداد قوته على حساب الحكام الآخرين مما يهددها في نهاية الأمر ، ولذلك أرسلت القسطنطينية حملة سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م ضد قلج أرسلان ، وأوعزت الى بعض الأمراء الدانشمنديين بمهاجمة أملاك قلج أرسلان من ناحية الشرق كما شارك في الحملة حجاج صليبيون قدموا من جزيرة رودس ، وحققت الحملة النجاح على قلج أرسلان في وادي نهر الماندر Meander الأمر الذي أجبره على طلب الصلح من الامبراطور مانويل .(٢)

وفي سنة ٥٥٧هـ/١١٦١-١١٦٢م زار السلطان قلج أرسلان القسطنطينية فاستقبله الامبراطور مانويل استقبالا حافلا . وقد وصفت المصادر اليونانية (البيزنطية) الشرقية هذا الاستقبال ، فذكرت أن السلطان أمضى ثمانين يوما في العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، حيث عُرِضَتْ ، بتفاخر ملفت للأنظار ، كل ثروات وأبهة العاصمة أمام الضيف الشهير الذي انبهر بمظاهر الاستقبال في القصر حتى أنه لم يجرؤ على الجلوس بجوار الامبراطور ، وبعد ذلك أقيمت على شرف السلطان مبارزات الفروسية البيزنطية ، ومهرجان بحري مع مناورة للنار الاغريقية . وفي مكان اقامته كان يُقَدَّم له الطعام مرتين في اليوم في آنية الذهب والفضة ، ثم لا تستعاد الآنية بل ترتب في محل اقامته ، وفي أحد الأيام ، وبعد ما تناول الامبراطور والسلطان مأدبة الغداء ، قدَّم الامبراطور

---

(١) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243– Ostrogorsky, History of The Byzantine State, p, 390– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236.

(٢) Runciman, Steven, A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1968, vol II, p, 356–
The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236.

الأوسمة وكل تلك الآنية هدية لضيفه(١) . ثم وقّع السلطان قلج أرسلان على معاهدة سلام ودية مع الامبراطور مانويل ، ومن شروط تلك المعاهدة ، أن يعيد قلج أرسلان المدن البيزنطية التي فتحها السلاجقة المسلمون منذ وقت قريب ، وأن يوقف الغزوات على حدود الامبراطورية ، وتعهد قلج أرسلان بأن يزود الجيش البيزنطي بفرقة عسكرية في أوقات الطوارىء .(٢) وهكذا ظهر قلج أرسلان بموجب تلك المعاهدة وكأنه أصبح تابعاً للامبراطورية البيزنطية .

غير أن تلك المعاهدة كانت قصيرة الأمد ، اذ لم يلبث السلطان أن أعلن لأصدقائه وحاشيته أنه أنزل بالامبراطورية البيزنطية أفدح الضرر بما حصل عليه من هدايا كثيرة قيمة من الامبراطور مانويل(٣) . ويبدو أن قلج أرسلان اعتقد أن الامبراطورية اشترت مسالمته بالمال حتى لا يهاجم حدودها ، ولذلك فقد انتهز فرصة انشغال الامبراطور مانويل الأول في بلغاريا ، لتعزيز موقفه في آسيا الصغرى(٤) . دون ان يدرك ان الامبراطورية البيزنطية ستعمل كل ما في وسعها للحيلولة دون ازدياد نفوذه ، ونمو قوته في آسيا الصغرى ، حتى لا يغريه ذلك بمهاجمتها . ففي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م خرج مانويل قاصدا البلاد التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند ، فاعترض التركمان طريق الامبراطور ، واتّبعوا أسلوب الهجمات الخاطفة في الليل والاختفاء نهارا ، الأمر الذي أوقع الاضطراب في صفوف الجيش البيزنطي ، وقُتل من أفراده أعداد كبيرة ، فاضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية (ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون)(٥) .

---

(١) Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol II, pp, 427-428.
وفي الحقيقة أن هذا تقليد درجت عليه الامبراطورية منذ عهد الكسيوس كومنين جد مانويل ، فعندما استقبل زعماء الحملة الصليبية الأولى غمرهم بالهدايا وتظاهر أمامهم بالفخامة والعظمة حتى يقسموا له يمين الولاء .
انظر : The Alexiad, pp, 313-326.

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236– Ostrogorsky, op. cit., p 390- Runciman, op.cit., Vol 2, p, 356.

(٣) Vasiliev, op.cit., vol II, p, 448.

(٤) Ostrogorsky, op.cit., p, 390; The Cambridge Medieval History, Vol Iv, part I, p, 236.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤ .

وفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م نشبت الفتنة بين قلج أرسلان الثاني وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وتطورت الى اندلاع الحرب الشديدة بينهما ، فانهزم قلج أرسلان أمام ابن دانشمند ، فاستنجد قلج أرسلان بالامبراطور البيزنطي مانويل الأول الذي أرسل له مساعدة عسكرية طبقا لسياسته في اذكاء نار الخلافات بين الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى . ولكن ياغي ارسلان لم يلبث أن توفي واستولى قلج أرسلان الثاني على بعض بلاده « واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد ابن دانشمند ، لأنه ملك بعد عمه ياغي أرسلان ، واستولى ذو النون محمد ابن دانشمند على مدينة قيسارية . وملك شاهان شاه بن مسعود ، أخو قلج أرسلان ، على مدينة انكورية ، واستقرت القواعد بينهم واتفقوا »(١) كما يقول ابن الأثير . غير أن تفكك دولة بين دانشمند أغرى قلج أرسلان الثاني بأن يضم اليه بعض بلادهم ، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م زحف على ملطية وسيواس فاستولى عليها وطرد منها صاحبها ذا النون محمد ابن دانشمند ، فهرب الأخير ، ملتجئا الى نور الدين محمود ومستمدا العون منه ، فأكرمه وأرسل الى قلج أرسلان يطالبه باعادة بلاد ذي النون اليه، فلم يجبه الى طلبه . «وكانت عادة نور الدين ، أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، اما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما»(٢) وإزاء إصرار قلج أرسلان على موقفه ، لم يجد نور الدين بدا من الضغط عليه عسكريا ، فسار الى جنوب آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون التابعة لقلج أرسلان ، كما أرسل فرقة عسكرية انتزعت سيواس وأعادتها الى ذي النون ، وعندما شعر قلج أرسلان بجدية تهديد نور الدين أرسل اليه طالبا الصلح ، فأجابه نور الدين الى طلبه ، وأرسل اليه شروطه ومن أهمها قوله : « اذا طلبت عسكرك الى الغزاة تُسيّره ، فانك ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم ، فاما أن تنجدني بعسكرك لاقاتل بهم الافرنج ، واما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم » ولم يسع قلج أرسلان

(١) المصدر نفسه ج١١ ص ٣١٧ .
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتاكية ص ١٦٠ .

الا الموافقة على شروط نور الدين الذي ترك فرقته العسكرية في سيواس لمساعدة ذي النون بن دانشمند[1] .

وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م عاد قلج أرسلان واستولى على بلاد ذى النون مرة أخرى[2] . ولم يجد ذو النون ابن دانشمند حليفا يشد من أزره ويقف الى جانبه ، بعد وفاة نور الدين ، فلجأ الى القسطنطينية شاكيا من قلج أرسلان كما أن شقيق قلج أرسلان شاهان شاه لجأ هو الآخر الى القسطنطينية بعد أن انتزع منه بلاده[3] . ومن الطبيعي أن يستجيب مانويل الأول لذى النون وشاهنشاه ، ولاسيما بعد أن ازدادت قوة قلج أرسلان كثيرا بعد أن عزل سائر منافسيه وأصبح هو الحاكم الأقوى في آسيا الصغرى[4] . كما أن قلج أرسلان استأنف من جانبه غزواته على حدود الدولة البيزنطية بتشجيع من الامبراطور الألماني فردريك بربرسا Frederick I Barbarassa الذي يبدو أن هدفه من ذلك تحويل انتباه مانويل عن التدخل في الشئون الأوروبية من ناحية ، وتخفيف الضغط على الامارات الصليبية في بلاد الشام من جانب المسلمين من ناحية أخرى[5] . ولذلك شرع مانويل في تحصين نشط لحدوده فأعاد بناء دوريليومDorylaeum كما أحرز بعض الانتصارات البسيطة في صيف سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م وأرسل الى البابا في روما يحثه على الدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وبدأ في اعداد قوات الامبراطورية للزحف على آسيا الصغرى . ويبدو أن قلج أرسلان علم بالاستعدادات الضخمة للامبراطور مانويل وتصميمه على اجتياح بلاده ، فأرسل في شتاء ٥٧١ هـ/١١٧٥ ـ ١١٧٦م رسولا الى القسطنطينية ملتمسا تجديد اتفاقية الصلح ، فقوبل هذا الالتماس بالرفض[6]

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص ٣٩٢ .

(٣) Runciman, A History of the Crusades, Vol II, P, 412; The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237.

(٤) The Cambridge Histoty of Islam, Vol IA, p, 243.

(٥) Ostrogosrky, op.cit., p, 390– Browning, Ropert, The Byzantine Empire, New York 1980, P, 130– Hussey. J.M The Byzantine World, London, 1970, p, 62.

(٦) The Cabmbridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237– Runciman, op.cit., Vol 2, p, 412.

وفي ربيع عام ٥٧٢ هـ/١١٧٦م قاد الامبراطور مانويل الأول كل قوات الامبراطورية البيزنطية عاقدا العزم على طرْد الأتراك من غربي آسيا الصغرى طردا تاما ، ثم الاستيلاء على العاصمة السلجوقية قونية[١] . ثم أرسل الامبراطور مانويل حملة من قواته بقيادة ابن عمه اندرونيكوس فاتاتزيس Aandronicus Vatatzes وبصحبته ذى النون الدنشمندى للاتجاه الى نكسار لانتزاعها من قلج أرسلان وتسليمها الى ذى النون ، ولكن ذا النون تخلى عن القيام بالدور المطلوب منه لمساعدة البيزنطيين[٢] . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا تخلف ذو النون عن القيام بالدور المناط به ؟ الحقيقة أنه لم يرد في المراجع المتداولة تفسير السبب الذي جعل ذا النون لا يقوم بالدور المكلف به . غير أن السبب لا يخفى على الباحث الحصيف اذا ما نظر للحوادث نظرة شمولية ، وعرف الموقف برمته في منطقة الشرق الأدنى حينذاك ، فالراجح أن ذا النون خشي أن تفشل حملة الامبراطور مانويل - وهو ما حصل بالفعل - وبالتالي لا يبقى له مكان يلجأ اليه هربا من انتقام قلج أرسلان ولا سيما وأن نور الدين محمود الذي حماه في السابق قد توفي في ذلك الحين ، وانقسم البيت الزنكي ، كما هو معروف ، وبدأ النزاع يحتدم بين صلاح الدين والزنكيين على السيطرة على بلاد الشام . كما لا يستبعد أن ذا النون شعر أن انتصار مانويل يعني انهيار نفوذ الترك وسيطرتهم على آسيا الصغرى ، وهذا يعني أن ذا النون يشارك في تدمير قومه مما سيلحق به عارا لا يمحى اذا ما شارك في الحملة . وكي لا يظهر بمظهر الخائن في نظر المسلمين بمشاركته أعدائهم . كل هذه الأسباب ، وربما بعضها ، حمل ذا النون على التخلي عن البيزنطيين ومخالفة الخطة المتفق عليها . وفي ربيع الأول ٥٧٢ هـ/سبتمبر ١١٧٦م وبعد أن تخلى ذو النون عن البيزنطيين حلت الهزيمة الساحقة بحملة اندرونيكوس فاتاتزيس عند أسوار نكسار ، وقُتِلَ وأُرسلت رأسه كدليل على النصر إلى السلطان قلج أرسلان[٣] .

(١) Browning, The Byzantine Empire, p, 130.

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237– Runciman, A History of the Crusades, Vol II, p, 412

(٣) Runciman, op.cit., vol II, p, 412.

والراجح أن خطة الامبراطور مانويل ارتكنت الى أن ينجح ابن عمه اندرونيكوس في الاستيلاء على نكسار في الوقت الذي يكون فيه الامبراطور قد حاصر قونية عاصمة قلج أرسلان ليبدأ بعد ذلك اندرونيكوس في الضغط على سلاجقة قونية من الشرق ، ويتم وضع مملكة قلج أرسلان بين فكي كماشة للاطباق عليها .

وكيفما كان الأمر ، فقد جمع قلج أرسلان عساكره من جميع حلفائه وأتباعه ، فأصبح يناهز في العدد جيش الأمبراطور البيزنطي وان كان يقل عنه في الأسلحة والعدة[1] ، ويبدو أن قوات السلطان الرئيسية تتكون من قبائل التركمان الرماة الذين يمتازون بدقة التصويب وخفة الحركة . وسار الأمبراطور مانويل بجيشه الهائل المثقل بالأمتعة والمؤن ومعدات الحصار ، قاصدا قونية عبر اقليم فريجيا Phrygia، واجتاز طريق لوديكيا Laodicaea وأعالي وادي نهر الماندر Meander مارا بحصن سوبلا يوم الذي بناه في السنة السابقة حتى وصل منطقة جبلية قريبة من الحدود ، بينما تقدم قلج أرسلان بقواته بمحاذاة اكشيهير Akshehir، وهنا جدد قلج أرسلان طلبه عقد الصلح ، فرفض مانويل مرة أخرى . وصعد الامبراطور بجيشه وادي الماندر نحو السلسلة الضخمة من جبل السلطان والمشتمل على شعب ضيق شديد الانحدار شمالي بحيرة اجريدير Egridir (المسمى حاليا ممر تشارداك Chardak pass) ويقع في نهاية الشعب حصن بيزنطي مهجور يعرف باسم ميريوكيفالوم Myriocephalum قرب الحدود . وكان الجيش السلجوقي قد احتشد حول التلال الجرداء المشرفة على الشعب بحيث أصبح واضحا بجلاء للبيزنطيين . وانقسم الرأي بين قادة الجيش البيزنطي ، فالقادة المتمرسون من ذوي الخبرة الطويلة في حروب آسيا الصغرى ، والمدركين لأساليب الترك القتالية أشاروا على الامبراطور بالتراجع ، وحذروه من مغبة مواصلة الزحف ، في حين حث القادة الشباب المتحمسين الامبراطور على المضي قدما عبر

---

(١) Ibid, vol II, p, 413

المر متوهمين أن في مقدورهم اكتساح الأتراك واحراز النصر وتحقيق المجد فاستجاب الامبراطور لرأي القادة المتهورين(١) .

وفي ربيع الأول ٥٧٢ هـ/١٢ سبتمبر ١١٧٦م مضت مقدمة الجيش داخل الشعب الضيق غير مبالية بالأتراك الذين اعترضوا طريقها وحاولوا في البداية المقاومة ثم تراجعوا ، وفق خطة مرسومة على الأرجح ، وأخذ الأتراك المسلمون يدورون حول التلال ، وينقضون على جناح الجيش البيزنطي ومؤخرته ، في الوقت الذي واصلت فيه فرق الجيش الأخرى التقدم داخل الشعب ، وضغطوا على بعضهم البعض بشده ، وحاول صهر الامبراطور بلدوين الأنطاكي رد الهجوم التركي فقاد فرقة من الفرسان في هجوم مضاد على التلال غير أنه قُتل مع كل الفرسان الذين معه ، وكان الأتراك يلوِّحون برأس اندرونيكوس فاتاتزيس لكي يحطموا معنويات البيزنطيين ويفتوا في عضدهم ، نظرا لأنهم لا يعلمون المصير الذي آلت اليه حملته . وكان لمصرع بلدوين ورؤية رأس اندرونيكوس أسوأ الأثر على معنويات البيزنطيين المتورطين في الشعب . وفي تلك الأثناء فقد الأمبراطور شجاعته وولى هاربا خارج الشعب لا يلوى على شيء . وتبعه كل أفراد الجيش الذين وجدوا أنفسهم متشابكين مع عربات الأمتعة والمؤن التي سدت الطريق خلفهم ، وهناك انحدر عليهم الأتراك المسلمون من أعالي التلال ، وشرعوا يحصدونهم حتى حلول الظلام ، أما الامبراطور فقد جرى ايقافه أخيرا من قبل بعض ضباطه . وكان في الامكان ابادة الجيش البيزنطي بأكمله وأسْرْ الامبراطور مثلما حدث في ملاذكرد ، غير أن قلج أرسلان أمر أتباعه بالتوقف عن القتل فأنقذ

(١) Browning, The Byzantine Empire, p, 130–
Runciman, op.cit., vol II, pp, 412-413–
The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 237, 743– The Cambridge History of Islam, Vol Ia, p, 243.

ما تبقى من فلول الجيش البيزنطي ، على أن معظم الجيش الامبراطوري أبيد في المعركة[١] .

وقد صور المؤرخ البيزنطي المعاصر نيستاس خونياتس Nicetas Choniates تلك المعركة بأنها كانت « منظرا بالغ التمزق ، بل أنه يبز القول ، فالكارثة كانت عظيمة اذ أن القول أنها كانت فاجعة لا يكفي فالحفر امتلأت الى ذروتها بالجثث ، وهناك في الوهاد وأدغال الجبال كانت أكوام من القتلى ، ولم يعبر أحد بدون جروح أو عويل ، فالجميع كانوا يبكون ويولولون منادين أصدقاءهم وأقرباءهم المفقودين بأسمائهم »[٢] ..

شرع مانويل في جمع شتات بقايا جيشه الممزقة، وقَبِلَ السلطان قلج أرسلان التماس الامبراطور السلام ، واشترط عليه هدم الحصنين الجديدين ، دوريليوم وسوبلا يوم . فقبل مانويل راضيا وشاكرا هذه الشروط السهلة ، وانسحب مخربا تحصينات سوبلا يوم وتاركا دوريليوم ، وعاد مع بقاياه الممزقة صوب القسطنطينية . وقد أرسل معه السلطان ثلاثة أمراء من السلاجقة كمرافقين لحمايته من هجمات التركمان أثناء عودته[٣] .

---

(١) Browning, op.cit., pp, 130-131–
Runciman, op cit., vol II, p, 413–
The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 237– Diehl, Charls, Greatness and Decline, New Jersey, 1957, pp, 207-208.

(٢) Vasiliev, History of the Byzantine Empitre, Vol II, p, 428.

(٣) The Cambridge History of Islam, vol IV IA, p,243– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p,237– Runciman, A History of The Crusades, vol II, p, 413.

لقد كان في مقدور السلطان قلج أرسلان املاء شروط قاسية على الامبراطور ، مثل اخلاء كل آسيا الصغرى فورا وتركها نهائيا للسلاجقة . ولذلك يعجب بعض أساتذة التاريخ البيزنطي لتلك الشروط السهلة التي قدَّمها قلج أرسلان لمانويل بعد المعركة ، والتي لا تتناسب مطلقا مع ما حازه من انتصار . ويذكرون أنه لأسباب لا تزال غير معروفة استخدم قلج أرسلان انتصاره باعتدال وفتح باب المفاوضات مع الامبراطور والتي أفضت الى معاهدة سلام معقولة لم تتضمن سوى تدمير بعض الحصون البيزنطية[1] . ويعزو بعض الباحثين الآخرين شروط قلج أرسلان السهلة ، إما لأنه كان قانعاً بحدوده المميزه وأن ما ينشده على الحدود الغربية هو الأمن والسلام ، أو لأنه لم يدرك حجم الانتصار الذي أحرزه[2] . والواقع ان الأسباب التي حدت بقلج أرسلان الى تقديم شروط سهلة للامبراطور البيزنطي ، هي أن جُلّ اهتمامه كان منصبا نحو الشرق ، فكان يريد السلام على الحدود الغربية كيما ينصرف الى توطيد نفوذه في الشرق واخضاع بقية الامارات المستقلة في تلك المناطق ، ثم العمل على توسيع نفوذه في أعالي الجزيرة والشام ، ولا سيما وأن نور الدين محمود قد توفي ، وهو الرجل الذي كان قلج أرسلان يخشاه في هذه المناطق . اضافة الى أن صلاح الدين كان - حينذاك - منهمكا في توطيد نفوذه في مصر وفي جهاد الصليبيين ، بل وكان النزاع محتدما بين صلاح الدين وبين بقايا الزنكيين في شمال الشام والجزيرة . الأمر الذي يبدو أنه جعل قلج أرسلان يسارع بعقد الصلح مع الامبراطور مانويل ، لكي يفيد من ذلك النزاع لحسابه الخاص . ومما يزكى هذا الرأي أن قلج أرسلان شرع فعلا في التوسع في أعالي الشام والجزيرة وفرض الحصار على حصن رعبان المهم في شمال الشام ، والذي كان قد انتزعه منه نور الدين وهو في ذروة مجده ، ولكن صلاح الدين - رغم انشغاله حينذاك بقتال الفرنج وتخريب حصن بيت الأحزان -

---

(١) Vasiliev, op.cit., vol II, p,429.

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p,243– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p,237.

أرسل ابن أخيه تقي الدين عمر لنجدة رعبان فأنزل الهزيمة بقلج أرسلان ومنعه من التوسع في شمال الشام(١) . ولعل قلج أرسلان أدرك أن القضاء التام على نفوذ الدولة البيزنطية في كل آسيا الصغرى قد يحدو بها الى استثارة البابوية والغرب الأوروبي مما يجعلهم يشعرون بالخطر ـ مثلما حدث بعد ملاذكرد ـ الأمر الذي سيدفع بهم الى تجريد حملة صليبية ضده ، في وقت لا تزال فيه بعض أجزاء من آسيا الصغرى في الشرق والجنوب خارجة عن سيطرته .

وقد أدرك الأمبراطور مانويل نفسه مدى الكارثة التي حلت به وبالامبراطورية البيزنطية في معركة ميريوكيفالوم ، حتى أنه شبهها بمعركة ملاذكرد (مانزيكرت) التي وقعت للأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس Romanos Diogenes قبل قرن من الزمان(٢) . ويقرر المؤرخ الألماني كوجلر Kugler ان معركة ميريوكيفالوم قررت والى الأبد مصير الشرق(٣) . ويمكن لنا القول : انها كانت نقطة تحول في تاريخ العالمين الاسلامي والمسيحي في ضوء النتائج التي تمخضت عنها وهي :

أولا : فيما يتعلق بسلاجقة الروم فالحقيقة أن معركة ميريوكيفالوم تضارع في أهميتها ونتائجها معركة ملاذكرد . فاذا كانت معركة ملاذكرد قد فتحت أبواب آسيا الصغرى على مصراعيها أمام الأتراك السلاجقة فان معركة ميريوكيفالوم وطدت ورسخت وجود الأتراك السلاجقة المسلمين على أرض آسيا الصغرى .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٥٨ .

(٢) Woodhouse C.M. Modern Greece, A Short History, London, 1968, pp, 76-77– Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p, 391– Browning, The Byzantine Empire, p,131.

من الاتفاقات العجيبة أن معركة ميريوكيفالوم تشبه معركة ملاذكرد حتى في بعض حوادثها ، اذ طلب قلج أرسلان الصلح قبيل المعركة مثلما فعل السلطان ألب أرسلان قبيل ملاذكرد ، ورفض مانويل مثلما رفض سلفه رومانوس . وكان هدف مانويل عاصمة السلطان قلج أرسلان مثلما كان هدف رومانوس عاصمة ألب أرسلان ، واعتمد السلاجقة المسلمون على خفة الحركة مثلما فعل اسلافهم في ملاذكرد ، وكان الجيش البيزنطي مثقلا بالمؤن والمعدات مثلما كان سابقه في ملاذكرد .

(٣) Vasiliev, History of The Byzantine Empire, vol II, p, 430.

ذلك أنه ترتب على معركة ملاذكرد ردة فعل عنيفة لدى الأباطرة البيزنطيين استمرت على مدى قرن من الزمان ، فبذلوا كل ما في وسعهم من محاولات لاسترداد آسيا الصغرى ، وتجسدت تلك المحاولات في الاستنجاد بالغرب الأوربي والبابوية من قبل ميخائيل السابع والكسيوس كومنين(١) ، ثم ما أمله الكسيوس من الافادة من الحملة الصليبية الأولى في استرداد آسيا الصغرى ، وما قام به الأباطرة من أسرة آل كومنين من محاولات جادة ، عن طريق الحملات التي قادوها بأنفسهم ضد الأتراك السلاجقة . فجاءت معركة ميريوكيفالوم لتبدد ردة الفعل تلك ولتقضي والى الأبد على كل الآمال والأحلام البيزنطية في اعادة آسيا الصغرى الى حظيرة الامبراطورية ، ناهيك عما نجم عن معركة ميريوكيفالوم من ازدياد الضعف والخور الذي انتاب الامبراطورية البيزنطية مما جعلها تقف عاجزة حتى عن الدفاع عن وجودها أمام الحملة الصليبية الرابعة بعد ٢٨ سنة على معركة ميريوكيفالوم . فصارت بلاد آسيا الصغرى أرضا للترك ، ومنذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت تدعى في المصادر الغربية باسم تركيا . كما أن قلج أرسلان تمكن بعد معركة ميريوكيفالوم من ارسال قواته الى غربي آسيا الصغرى ، ففتحت مناطق يلوبورلو Uluborlu وكوطاهيا Kutahya واسكي شهر Eskishehir . ولم يجد التركمان المسلمون بعد معركة ميريوكيفالوم صعوبة في التوغل بخيولهم وسائمتهم مع مجاري الأنهار حتى مصباتها في بحر ايجه . وبفضل هذا النصر الحاسم توطدت الوحدة السياسية للأناضول وساد بها القانون والنظام وبدأت حقبة التقدم الاقتصادي والثقافي ، وبلغت دولة سلاجقة الروم ذروة المجد في عصرها الذهبي الذي استمر حتى الغزو المغولي سنة

---

(١) عن استنجاد الدولة البيزنطية بالبابوية والغرب الأوربي انظر :

Vasiliev, op.cit., Vol I, p, 358, vol II, pp, 358-389– The Cambridge Histoty of Islam, vol IA, p, 235.

٦٤١هـ / ١٢٤٣م، كما تكثفت طرق المرور الهامة للتجارة العالمية في تلك المنطقة وأصبحت آسيا الصغرى جزءا رئيسيا من العالم الاسلامي[١] .

ثانيا: كانت معركة ميريوكيفالوم بالنسبة للامبراطورية البيزنطية كارثة عظمى منيت بها . أراد الامبراطور مانويل أن يبدد الخطر السلجوقي فاذا به يقع مع امبراطوريته في هوة سحيقة لا سبيل الى الخروج منها . ومع ذلك فان مادحا مجهولا لمانويل قلب فراره الفعلي أمام الأتراك المسلمين الى واحدة من مآثره الرائعة حينما قال : « بعد الاصطدام مع حشود المهاجمين الأتراك اندفع (مانويل) الى الهرب بمفرده دون أن يخشى السيوف والسهام والرماح »[٢] . أما ابن أخت مانويل فقد زين بيته الجديد بصور زيتية ومن ضمنها صور تتضمن أعمال السلطان على الجدران ، ولكنه وضعها في الأماكن المظلمة من الدار تعبيرا عن التشاؤم ، وهي في حقيقتها تشرح الكارثة التي حلت بالامبراطورية في معركة ميريوكيفالوم[٣] . ورغم ادراك مانويل لابعاد الكارثة التي حلت به وحقيقة ما فقده في المعركة ، فانه حاول التقليل من هزيمته الساحقة في نظر معاصريه ، ففي رسالة طويلة بعث بها الى صديقه الغربي الملك هنري الثاني بلاتاجنيت Henery II Platagenet ملك انجلترا ، أعلن مانويل هزيمته ، ورغم أنه حاول بوضوح أن يخففها قليلا ، الا أن القصة الكاملة للمعركة أعطيت من جانبه في تلك الرسالة ، كما أورد فيها معلومات مهمة تتعلق باشتراك الرجال الانجليز في المعركة ، والذين خدموا الأباطرة البيزنطيين كجنود مرتزقة منذ سنة ١١٦٦م وبخاصة في الحرس الأمبراطوري[٤] .

---

(١) The Cambridge History of Islam vol IA, pp, 243-244, 258– Vryonis, Speros. Jr, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and The Process of Islamization From Eleventh through the Fifteenth Century, Los Angeles, 1971, pp, 124-126.

(٢) Vasilive, op.cit., vol II, p, 429.

(٣) Ibid, vol II, p, 429.

(٤) Ibid, vol II, p, 429.

غير أن كل تلك المحاولات لم تجد نفعا في التخفيف من وقْع الكارثة على الأمبراطورية ، فهيبة مانويل انحدرت الى الحضيض ، اذ أن هزيمته في معركة ميريوكيفالوم أذكت الرغبة لدى الأباطرة الجرمان من أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في أن تصبح سيطرتهم عالمية الطابع ، أي على الشرق والغرب على حد سواء . فقد أرسل الامبراطور مانويل بعد معركة ميريوكيفالوم رسالة الى الامبراطور فردريك الأول بربرسا صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة The Holy Roman Empire صوَّر فيها وضع السلطان قلج أرسلان وكأنه ضعيف . غير أن فردريك بربرسا قد علم في ذلك الحين بحقيقة هزيمة مانويل الساحقة ، وفي رده عليه ، أعلن فردريك أن الأباطرة الجرمان تسلموا سلطتهم من أباطرة الرومان العظام ، ليحكموا ، ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل المملكة اليونانية (الدولة البيزنطية) ، ولذلك أمر فردريك الملك اليوناني مانويل بأن يعترف بالسلطة للامبراطور الغربي ، ويذعن لسلطة البابا ، وأنهى فردريك خطابه بالاشارة الى أنه سوف يعدِّل سلوكه في المستقبل ازاء مانويل الذي كان يزرع عبثا القلاقل بين الأتباع الاقطاعيين ضد الامبراطورية الغربية . وهذا كله يشير بوضوح الى انهيار هيبة الامبراطورية البيزنطية ورغبة الامبراطور الألماني في استغلال هزيمة البيزنطيين وفرض سيطرته عليهم(١) .

ولم يستطع مانويل أن يخفي الأثر الذي تركته معركة ميريوكيفالوم في نفسه . وقد وصف المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري William of Tyre حالة مانويل النفسية حين زار القسطنطينية سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م في طريق عودته من مجلس اللاتران الثالث Lateran Council الذي انعقد في روما ، وفي القسطنطينية حضر بعض الاحتفالات الامبراطورية ، ووصف حالة مانويل النفسية مؤكدا على أنه لم يسترد عافيته وطمأنينته أبدا ، وأنه لا يزال يحمل في قلبه أثرا عميقا منذ هزيمة ميريوكيفالوم ، ولم يعد يبدى روحا مرحة ، وهي التي كانت تميزه في السابق ، ولم

(١) Vasiliev, op.cit., vol II, p, 430– Hussey, The Byzantine World, p, 62– ostrogorsky, History of the Bzyzantine State, p, 391– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 238.

يظهر مبتهجا أمام مواطنيه مهما تضرعوا اليه ولم يعد ينعم بصحة جيدة ، بعد أن كان قبيل تلك الحادثة مفعما بالصحة ، رابط الجأش بدرجة ملفته للنظر ، اذ أن تلك الهزيمة أخمدته الى الأبد . وأشار وليام الصوري الى ما تركته هزيمة ميريوكيفالوم من أثر سيء في نفوس الصليبيين[١] .

ونتج عن معركة ميريوكيفالوم تدمير الجيش البيزنطي الذي أنشيء تدريجيا وبتضحيات جسيمة للبيزنطيين . ولفترة من الزمن أصبحت الأمبراطورية بدون حماية عسكرية ، وجرى تطويقها من جانب أعدائها الذين طمعموا فيها . أما حلم مانويل في جعْل الامبراطورية مرة أخرى قوة عظمى فقد ذهب أدراج الرياح . وأخيرا طُردت الحاميات البيزنطية القليلة من ايطاليا وشرع الهنغاريون في جس الحدود الشمالية ، وأسهم الصربيون في زعزعة السيطرة البيزنطية ، وليس هناك سوى القليل الذي استطاع أن يفعله مانويل ازاء تلك الأزمات التي أخذت تترى على الامبراطورية بعد معركة ميريوكيفالوم ، فبدد موارد الامبراطورية ، وأنفق الثروة المكدسة من قبل والده ، الشديد الحرص في النفقة ، كما أنفق النفائس المعدة للاستخدام في أوقات الطوارىء على الجنود المرتزقة ، وابتدع حكم الطبقة العسكرية التي انفرد أعضاؤها بكراهية الشرقيين[٢] . والأمر الذي لا شك فيه أن فناء الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم يفسر السهولة التي سقطت بها القسطنطينية أمام الحملة الصليبية الرابعة ، اذ لو قدر لجيشها البقاء لأصبح من العسير جدا على الحملة الصليبية الرابعة اقتحام القسطنطينية والاستيلاء عليها .

وصفوة القول ، أن الامبراطور مانويل كان يريد السيادة العليا على الإمارات الصليبية في الشرق والنجاح في هنغاريا ، وتوهم أن في مقدوره أن يحتل منطقة واسعة في ايطاليا وأن يحافظ على مركزه في سائر الميادين الشرقية والأوربية . جاءت معركة ميريوكيفالوم الحاسمة لتبدد كل المكاسب التي أحرزتها الامبراطورية

---

(١) William of Tyre, History of Deeds, vol II, pp, 414-416.

(٢) Browning, The Byzantine Empire Empire, pp, 131-132.

في السابق فانهار النفوذ البيزنطي في الشرق وطُرِدَ البيزنطيون من قيليقية وفقدوا السيطرة على آسيا الصغرى الى الأبد[١] .

ثالثا : أما عن أثر معركة ميريوكيفالوم على الصليبيين ، فقد حاول مانويل أن يثبت في السنة التالية للمعركة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م أنه لا زال قادرا على مساعدة الصليبيين فأرسل أسطوله بحرا للمشاركة مع مملكة بيت المقدس الصليبية لغزو مصر غير أن الحملة لم تبحر الى مصر مطلقا بسبب تقاعس فيليب كونت فلاندر Philip Count of Flander الذي وصل مؤخرا من أوروبا . ورغم احتفاظ مانويل بعلاقات جيدة مع أصدقائه الصليبيين في بلاد الشام وجهوده في سبيل ازالة الحواجز بين اليونانيين واللاتين ، وعمله على تقليص المشاحنات السياسية اللاذعة والتيارات الدينية المتنافرة بين الجانبين[٢] ، فان ذلك كله لا يمكن أن يحجب حقيقة تدمير قوات الأمبراطورية في معركة ميريوكيفالوم وانهيار السياج الأخير الذي يمكن أن يركن الصليبيون الى مساعدته في وقت الشدائد . وقد أدرك المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري تلك الحقيقة كما ذكرنا آنفا . ويعلق بعض الباحثين المحدثين بقوله : « إن الهزيمة الساحقة التي حلت بالامبراطور مانويل من جانب سلاجقة قونية (١٧ سبتمبر ١١٧٦) أقصت البيزنطيين بوصفهم حليفا فعالا في مستقبل الحملات الصليبية في بلاد الشام ومصر»[٣] .

ذلك أنه برغم شعور الشك والريبة الذي ساد بين الدولة البيزنطية والصليبيين منذ فجر الحركة الصليبية فانهم كانوا يلوذون بها وقت الأزمات وقد شاركتهم أحيانا في شن الحرب مباشرة على المسلمين مثل الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة التي قادها الامبراطور حنا كومنين ضد عماد الدين زنكي سنة

(١) Ostrogrisk, op.cit., p, 391-Diehlg, Byzantium, Greatness and Decline, p, 208– Mayer, Hans Eberhard, The Crusades, translated by John Gillingham, Oxford University press, 1972, p, 125.

(٢) The Cambridga Medieval History, Vol IV, part 1, p, 238.

(٣) Ehrenkreutz, Andrew, S, Saladin, New York, 1972, p, 116 .

٥٣١هـ / ١١٣٨م(١) . لذلك كله من الطبيعي أن تصيب معركة ميريوكيفالوم الصليبيين بالفزع والهلع، لأنهم أدركوا أن انكماش الامبراطورية البيزنطية عن آسيا الصغرى وزوال مساعداتها المقدمة اليهم ولا سيما الى امارة أنطاكية بالذات جعلهم في الميدان وحدهم أمام المسلمين(٢) .

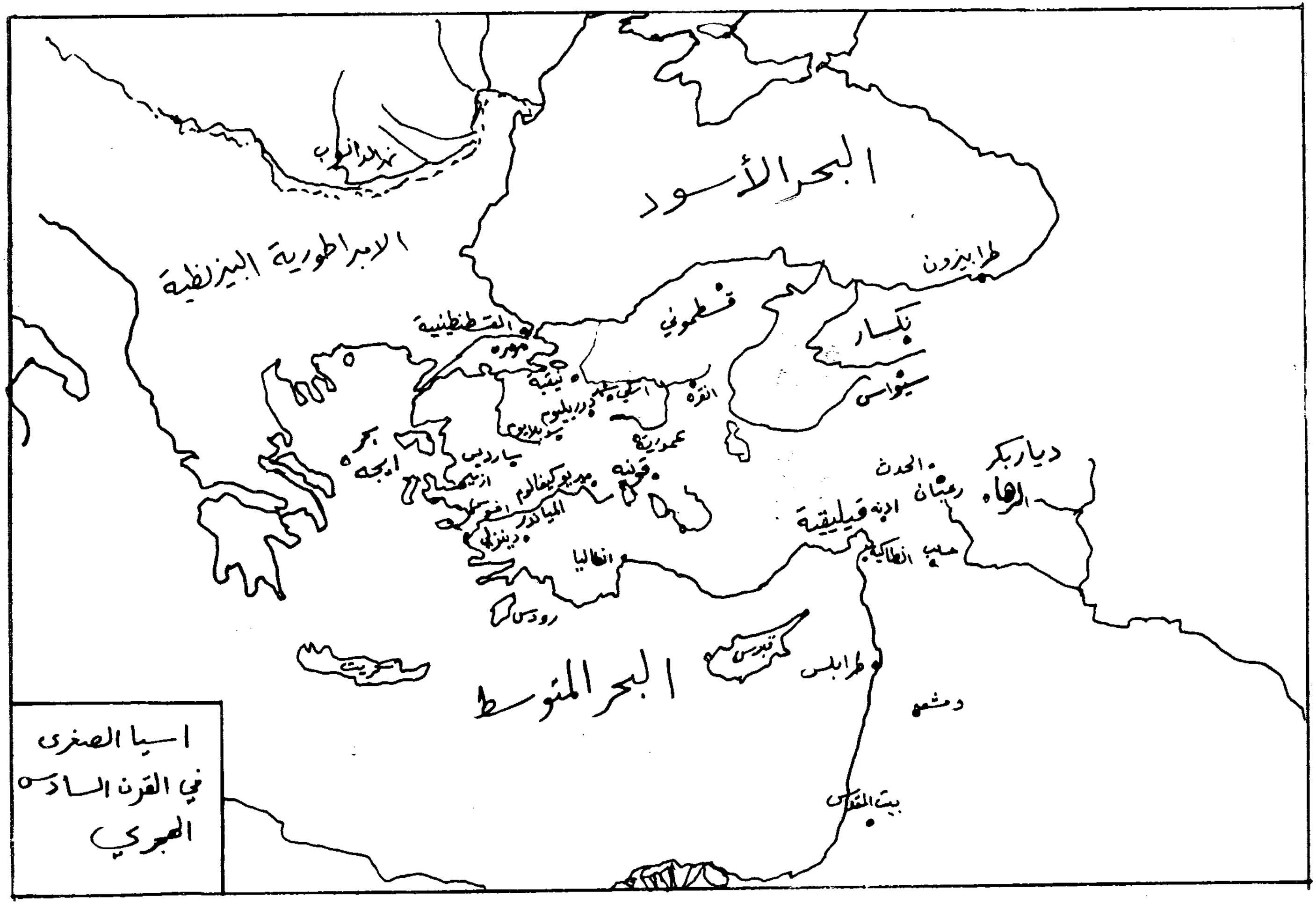
رابعا : أما عن أثر المعركة على الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين بقيادة صلاح الدين ، فعلى الرغم من أن سلاجقة الروم لم يرسلوا قواتهم للاشتراك مع صلاح الدين في جهاد الصليبيين الا أن قضاءهم على الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم كفل الأمن للجناح الشمالي لجبهة صلاح الدين ، فقد كانت تلك الجبهة ، كما رأينا ، مصدر قلق لنور الدين محمود ابان حياته وحالت بينه وبين الامعان كثيرا في الضغط على الصليبيين . وليس هذا فحسب ، بل لقد أصبحت الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة مانويل تتخلى نهائيا عن سياستها الصليبية وقلبتها رأسا على عقب ، فلم تجد غضاضة في التماس صداقة صلاح الدين فعقدت معه معاهدة سلام وصداقة ضد المصالح الصليبية في بلاد الشام(٣) . وبذلك خدمت معركة ميريوكيفالوم القضية الاسلامية برمتها . وهكذا كانت هذه المعركة الحاسمة احدى المآثر العظيمة التي قام بها الأتراك المسلمون في التاريخ الاسلامي .

---

(١) عن هذه الحملة انظر تفاصيلها في ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥١ ـ ٥٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٢ .

(٢) Runciman, A History of the Crusades, vol II, p, 414; Mayer, The Crusades, p, 125, Setton, A History of The Crusades, vol I, pp, 494-495.

(٣) Ehrenkreutz, Saladin, p, 154; Setton,op. cit, vol I, p, 584.
وعن طبيعة العلاقات بين الدولة البيزنطية وصلاح الدين وتطورها ، انظر : حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٣٤ ـ ٢٤٢ .



اسيا الصغرى
في القرن السادس
الهجري
البحر الأسود
البحر المتوسط
الامبراطورية البيزنطية
نهر الدانوب
طرابزون
قسطموني
نكسار
سيواس
ديار بكر
الرها
الحدث
قيليقية
حلب
انطاكية
طرابلس
دمشق
بيت المقدس
قبرص
كريت
رودس
انطاليا
قونية
عمورية
انقرة
القسطنطينية
نيقية

مصادر ومراجع البحث

- ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت. ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)
  ١ ـ الكامل في التاريخ ج ١١ بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م
  ٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر احمد طليمات القاهرة ، ١٩٦٣م
- ابن القلانسي (ابو يعلي حمزة بن القلانسي ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م). مفرج الكروب في اخبار بني ايوب جـ ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ م.
- حسنين محمد ربيع :
  دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م
- سعيد عبد الفتاح عاشور :
  الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٨م

— Anna Comnena :
The Alexiad of Anna Comnena, translaterd by E.R.A. Sewter, London, 1969.
— Browning, Robert :
The Byzantine Empire, New York, 1980.
— The Cambridge History of Islam, vol IA, Cambridge 1980.
— The Cambridge Medieval History, vol IV (The BYzantine Empire, part I, Byzantium and its Neighbours) Cambridge, 1966.
— Diehl, Charls :
Byzantium, Greatness and Decline, New Jersey, 1957.
— Ehrenkreutz, Andrew, S.:
Saladin, New York, 1972.
— Hussey J.M:
The Byzantine World, London, 1970.
— Mayer, Hans Eberhard :
The Crusades, translated by Gillingham, Oxford University Press 1972.
— Ostrogorsky, George:
History of the Byzantine State, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.
— Runciman, Steven :
A History of The Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968.

— Setton, Kenneth M. (Editor) :

A History of The Crusades, 2 vols, The University of Wisconsin Press, 1969.

— Stevenson, K.M :

The Crusades in the East, Cambridge, 1907.

— Vasiliev, A.A. :

History of the Byzantine Empire, 324-1453, 2 vols, Madison, 1976, 1978.

— Vryonis, Speros, Jr :

The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Forteenth Century, Los Angeles, 1971.

— William of Tyre :

A History of Deeds Beyond the Sea, translated and annotated by Emily Babcock and A.C.Krey, New York, 1943.

— Woodhouse, C.M :

Modern Greece, A Short History, London, 1968.